

حوار مع الشيخ محمد السند

بمناسبة الذكرى الألفية للسيد المرتضى

إن السيد المرتضى رحمته الله يُعد من مؤسسي المذهب الإمامية، ونقصد بالتأسيس التأسيس الاجتهادي عند العلماء المجتهدين التابعين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، كل كتب السيد المرتضى تُعد بحق خطى تأسيسية في مذهب الإمامية.

نلاحظ مثلاً كتاب الناصريات أو الانتصار، فكتاب الناصريات يُعد من الفقه المقارن الذي ألفه السيد وهو تأليف جدير جداً في المقارنة بين المذهب الزيدي والمذهب الإمامي، وهو تعليق على فقه جدّه من طرف الأم الذي كان من الزيدية. هذا الكتاب عبّد الطريق لتأليفات الشيخ الطوسي والطبرسي وغيرهما من أعلام الطائفة في الفقه المقارن.

فالشيخ الطوسي في كتابه (الخلاف) حذا حذو السيد المرتضى، وتوسّع أكثر، كما هناك كتاب آخر للسيد المرتضى وهو جدير في المرحلة التأسيسية وهو كتاب الذريعة في علم الأصول، فاتبعه الشيخ الطوسي أيضاً وكتب كتاب العُدّة في الأصول. فكلتا الكتابين ليسا تقليديين بل فيها تنظير لبنى قواعد معالم المذهب الإمامية في علم



الأصول سواء في البعد الرجالي أو الروائي أو حجية القرآن والقواعد العقلية وحجية السيرة فكتاب الذريعة يبيّن معالم المذهب وقد عُجِن فيه الجانب الاعتقادي الكلامي والجانب الأصولي.

ونوع آخر من تأليفات وتأسيسات السيد المرتضى كتاب الشافي، وهو تعليق من السيد على كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي فيما يخص الإمامة، ولم ينح السيد فيه منحى البحث في الأسانيد وجهة الصدور، وأثما ركّز على بعد فقه المتون وفقه الدلالة، وهذا أمر مهم جداً في منحى وروية وشاكلة السيد المرتضى العلمية، إذ اعتنى كثيراً بفقه الدلالة، فهذه الدلائل التي تُصاغ من قبل متكلمي الإمامية سواء في زمن الأئمة عليهم السلام أو بعدهم، ركّز السيد المرتضى على دراية هذه الدلائل لا صدورها فقط. ولذلك نرى السيد في كتاب الشافي لا يشغل نفسه بمسألة صحة الصدور والأسانيد كثيراً بقدر ما يشغل نفسه بفقه الدلالة مثلاً ما هي دلالة حديث المنزلة، حديث باب مدينة العلم، وحديث الغدير؟! وما شاكل، فهذه المجلّدات الأربعة هي عبارة عن الغوص والتأمل التحليلي في دلائل قوالب معاني هذه الأحاديث النبوية، وهذا في الحقيقة غوص علمي في عالم المعنى ومنظومته فنحن بحاجة إليه كثيراً. ولذا لا نرى في كتابه الجفاف الموجود في سائر الكتب الكلامية، بل أنه اخذ البعد التحليلي وتوسّع فيه طبقاً لتوصية الأئمة عليهم السلام في قولهم: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه» أي: حديث واحد تستخرج منه كنوز المعاني والحقائق التي فيه أفضل من أن يكون هناك ركاماً - نورياً طبعاً - من الأحاديث.

ومن الأمور الأخرى الهامة التي أسّسها السيد المرتضى هي زعامته للطائفة الإمامية، وكيفية تعامله مع البويهيين أو الدولة العباسية آنذاك بشكل عام. فقد أدار السيد المرتضى الحوزة العلمية والطائفة الإمامية، وإدارة نقابة الطالبين وهكذا، فأدارته هذه كان فيها تأسيس بنيوي للطائفة، يشهد لها مراسلاته الكثيرة مع مختلف

الجاليات في مختلف البلدان مما يدلّ على تواصل وتيد بين مرجعية السيد المرتضى وبين مجاميع المؤمنين في مختلف أصقاع العالم. ولذا تنوعت مسائله ورسائله في جوانب مختلفة عقائدية فقهية روائية، فكانت رعاية وكفالة علمية ودينية.

إنّ الجانب العقائدي للسيد المرتضى يساوي جانبه الفقهي أو يزيد عليه، وهو طابع مهم يشعرونا بأنّ المرجعية الشيعية آنذاك كانت تولى الجانب العقدي أهمية كبيرة جداً، وهذا ما نلاحظه أيضاً في الشيخ المفيد وكذلك الشيخ الطوسي.

أمر آخر وهو أنّ الدولة البويهية رغم شيعيتها إلاّ أنّ السيد المرتضى عمل على استقلال الحوزة العلمية الشيعية عن الدولة البويهية، وحاول أن لا تفقد الحوزة طابعها العلمي المتميّز الذي لا يخضع لتقلّبات ظروف السياسة المتغيّرة من آن لآخر، وهذه كلّفت السيد ضريبة كبيرة. وذلك رغم كونه كان مؤيداً وداعماً للدولة البويهية لكنه جعل مسار الطائفة أوسع من أن يتلخّص في نظام سياسي معين، وأنّما النظام السياسي المعين أياً ما كان فأنّه موج من أمواج مدرسة أهل البيت عليهم السلام. طبعاً هذه المؤهلات كانت بركة ما امتاز به السيد من النسب الشريف من طرف الأب والأم، وكذلك ما امتاز به من التلمذ عند الشيخ المفيد رحمته الله، فهذه البيئة وهذا الإعداد أدّى إلى ما آل إليه السيد من دور كبير في معالم المذهب.

